PSYCHOLOGY AND EDUCATION (2024) 61(10): 544-554
ISSN: 1553-6939

The dialectics of the self and the other in contemporary Algerian poetry "I Am the Universe" by Jilali Hallam - a critical sociological study

PhD (c) Messaoud chetoui [1*]
[1:] University of Abu Al-Qasim Saadallah -Algiers 2. (Algeria), **Messaoud.chetoui@univ-alger2.dz**

Received:25 /08/2024 ،Published: 10/10/2024

ABSTRACT:

Through this paper, we wanted to delve deeply into the issue of the duality of the self and the other in contemporary Algerian poetry, and to highlight how this duality is central to the construction of contemporary poetry, and how the poem "I am the Universe" by the poet Jilali Hallam reflects this problem, as it shows The poem is the suffering of the poet's ego and her sense of failure resulting from the sharp gap between her ambition and the reality of Arab society, which is characterized by submission and surrender. It also expresses the psychological conflict buried in the subconscious of every Arab Muslim "ego," as a result of the conflict existing between the Arab and Western civilizations. This approach to the poem reveals how to employ the duality - the ego/the other - in expressing the concerns of the poet's self and its existential and cultural manifestations in light of the contemporary Arab reality, which reflects the depth of the poet's creative experience and his ability to artistically express the problems of this central duality in contemporary poetry. We wanted to enrich our understanding through this objective discussion of the structure of contemporary poetry and the ways of employing the duality of self and other in it. We also look forward to further analysis and discussion of this vital aspect of contemporary Algerian and Arab poetry.

Keywords:
Contemporary Algerian poetry; the other; the ego; the central dualism; the Arab and the Western.

جدلية الأنا والآخر في الشِّعر الجزائريّ المُعاصر
"أنا الكونُ" لجيلالي حلّام –دراسةٌ سُوسيو نقديّة

ط. د. شتوي مسعود [1*]

[1] جامعة أبو القاسم سعد الله– الجزائر 2، (الجزائر)، **Messaoud.chetoui@univ-alger2.dz**

الملخص:

أردنا من خلال هذه الورقة أنْ نبحث عميقاً في مسألة ثنائيّة الأنا والآخر في الشِّعر الجزائريّ المعاصر، وإبراز كيفيّة تشكُّل محوريّة هذه الثُّنائية في بناء القصيدة المعاصرة، والكيفيّة الّتي تعكسُ من خلالها قصيدةُ "أنا الكون" للشّاعر جيلالي حلّام هذه الإشكالية، حيثُ تُظهر هذه القصيدة معاناة الأنا الشَّاعرة وإحساسها بالإخفاق النّاتج عن الفجوة الحادّة بين طُموحها وواقع المجتمع العربيّ المتَّسم بالخنوع والاستِسلام، كما أنَّها تعبّر عن الصّراع النّفسي الدَّفين في اللّاشعور لكلِّ "أَنا" عربيّةٍ مُسلمةٍ، جرّاء الصّراع القائم بين الحضارتين العربيّة والغربيّة، إذْ أنّ هذه المقاربة للقصيدة تكشفُ عن كيفيّة توظيف الثُّنائية –الأنا/الآخر– في التّعبير عن هموم الذّات الشّاعرة وتجلّياتها الوجوديّة والثَّقافية في ظلّ الواقع العربيّ المعاصر.

– فما هو عُمْقَ التَّجربة الإبداعيّة للشَّاعر؟ وما مدى قُدرتِه على التّعبير الفنّي عن إشكاليَّات هذه الثُّنائية المركزيّة في الشِّعر المعاصر؟ كما أردنا إثراءَ فهمِنا من خلال هذه المناقشة الموضوعيّة لبناء القصيدة المعاصرة، وطُرق توظيف ثنائية الأنا والآخر فيها، كما نتطلَّع إلى مزيدٍ من التَّحليلِ والمناقشةِ حول هذا الجانب الحيويّ في الشِّعر الجزائريّ والعربيّ المعاصر.

الكلمات المفتاحية:
الشّعر الجزائريّ المعاصر؛ الآخر؛ الأنا؛ الثُّنائيّة المركزيّة؛ العربيّ والغربيّ.

مقدّمة:

بادئ ذي بدءٍ نذكرُ أنّ الشّعر الجزائري المعاصر قدْ تأثّرَ بالمفاهيم الحداثيّة؛ حيثُ برزت فيهِ مفاهيمُ جديدة كـ "الأنا" الّتي تشير إلى معرفة الذّات وإدراكها من قبل الشّاعر أو المتكلّم، ولقد اعتمِدَ هذا المفهوم في العلوم الإنسانية المختلفة كعلم النّفس وعلم الاجتماع قبل أن ينتقل إلى الأدب؛ خاصّة في الأجناس الأدبيّة كالرّواية والشّعر... فحين يَذكُر الشّاعر "الأنا" فإنّه لا يمكنُ أن يفصله عن "الآخر" الّذي من خلاله يعبّر عن معاناته وآلامه وأحزانه، لذلك فإنّ تحديد مفهوم الأنا والآخر وتوضيح العلاقة القائمة بينهما أمرٌ ضروريٌّ لفهم النّصّ الشّعري المعاصر.

وفي قصيدة "أنا الكونُ" للشّاعِر الجزائري جيلالي حلّام؛ نلاحظ هذه العلاقة الجدليّة بين الأنا والآخر، إذْ يتجلّى الأنا في تطلُّع الشّاعر إلى الكون والكينونة، في حين يظهر الآخر في تفاعُله مع محيطه وتعبيره عن معاناته وآماله، وهذا الارتباط الوثيق بين الأنا والآخر يعدُّ سمةً أساسيّة في الشّعر العربيّ المعاصر، والّتي تُبرِز ضرورة معالجتها من خلال المنهج اللّساني التّداولي.

– الأنا والآخر في القصيدة الجزائريّة المعاصرة

أ. لغةً:

من خلال التّعريفات الكثيرة للأنا الّتي جاء في معناه "**أنّـهُ ضميرُ رفعٍ منفصلٍ يعودُ على المتكلّم والمتكلّمـةِ..**"[1] حيثُ أورد المعجمُ الوسيطُ أنّ مفهوم الأنا في اللّغة العربيّة يشير إلى الذّات المتكلّمة أو المنطوقة؛ سواءٌ أكان المتكلم ذكرًا أم أنثى، وقد أكّد صاحب المحيط على هذا المعنى أيضاً في قوله: "**هو ضميرُ رفع منفصل للمتكلّم؛ مذكّراً أو مؤنّثا، مثنّاهُ وجمعه، ونحنُ..**"[2]

يمكنُنا تلخيص مفهوم الأنا في اللّغة العربيّة على أنّهُ ضمير الرّفع المنفصل الّذي يعود على المتكلِّم أو المتكلِّمة، كما تشيرُ الأنا إلى الذّات المُتكلّمة بأيّ صفة كانت، سواءٌ كان المتكلّم ذكراً أم أنثى؛ فالأنا تُؤكّد على خصوصية الذّات المتكلّمة وتمايُزها عن غيرها.

وبذلك فإنّ مفهوم الأنا في اللُّغة العربيّة يُركّز على الجانب اللُّغويّ والنّحويّ للذّات المُتكلّمة، دون التّوسُّع في الجوانب الفلسفيّة أو النّفسيّة للمفهوم.

ب. في الاصطلاح:

لقد أشرنا بشكلٍ دقيق إلى أنّ مفهوم الأنا يُعدُّ من المفاهيم المراوغة والمتعدّدة المعاني في مختلف العلوم الإنسانيّة؛ فهذا المفهوم لا يقتصر على المعنى اللُّغويّ والنّحويّ الّذي تناولناه سابقا، بل يتّخذُ معانٍ مختلفة في كلّ علمٍ من هذه العلوم؛ **"فالأنا مفهومٌ مراوغٌ يستعصي على التّعريفِ، والحدّ الاصطلاحيّ؛ لأنّهُ يدخلُ في المشاركةِ الكبيرةِ لأغلبِ فروع العلوم الانسانيّة.."**[3]

وكما ذكرنا فإنّ عبّاس يوسف حدّاد يصف "الأنا" بأنه "مفهوم مراوغ يستعصي على التّعريف والحدّ الاصطلاحي"؛ وذلك لأنّه يدخل في مشاركة كبيرة في أغلب فروع العلوم الإنسانيّة، حيثُ يتّخذ في كلّ علم معنًى خاصّ ومختلف عن الآخر، وذلك حسب اختلاف الرُؤى الجديدة لأصحاب هذه العلوم، ولذلك فإنّ مفهوم الأنا لا يمكن حصره في تعريفٍ واحد شامل، بل يتطلّب دراسة كيفية تناول كلّ علم من هذه العلوم لهذا المفهوم وفق منظوره الخاصّ، وهذا يؤكّد على تعدُّد المقاربات الّتي يُنظَر من خلالها إلى هذا المفهوم المركزيّ في العلوم الإنسانيّة.

كما نوضّحُ كيف ينظر المنظور الفلسفيّ إلى مفهوم "الأنا"؛ **"فالأنا من هذا المنظور تُعبّر عن الذّات المُدركة لنفسها والمخاطِبة للآخر..."**؛[4] وهنا يبرز دور "الآخر" في تشكيل هذه الأنا، حيثُ أنّ العلاقة بين الأنا والآخر يتوسّطها موضوع الخطاب؛ الّذي يُعدُّ الرّابط بينهما

وبذلك يتّسمُ مفهوم الأنا في المنظور الفلسفيّ بركيزتين رئيسيتين:

– ركيزةُ العلاقة والتّواصل مع الآخر؛ حيثُ أنّ الأنا تتحدّد من خلال هذه العلاقة.

– ركيزةُ الوساطة والرّبط؛ الّذي يقوم به موضوع الخِطاب بين الأنا والآخر؛ **"فالوسطيّةُ في بنية الأنا العلائقيّة وفي هذا المركّب العلائقي تتسمُ الأنا بركيزتين اثنتين.."**[5]

وهذا يُؤكِّد على أنّ الأنا في الفلسفة لا تنفصل عن الآخر ولا عن موضوع الخطاب الّذي يوحِّدهما، بل إنّ هذه العلاقات والوساطات هي الّتي تُشكّل مفهوم الأنا ضمن هذا المنظور.

وإذا تحدّثنا بشكلٍ أوضحَ عن الرّكيزتين الرئيسيّتْين لمفهوم "الأنا" في المنظور الفلسفي نقولُ أنَّ:

– **أولاً:** الأنا هي المحور المركزيّ في هذه العلاقة المركّبة؛ حيثُ أنّ الموضوع يُعتبَر موضوعاً لها، والآخر يُعتبر كذلك بالنّسبة إليها.

– **ثانياً:** الأنا هي الوحدة المشكّلة لهذا المركّب العلائقيّ ككلّ؛ وفي هذا المركّب تُعتبر بنية الأنا بوصفها وعياً ذاتيّاً يتمثّلُ في الذّات، والآخرُ هو الذّات الأخرى، والعلاقة بينهما عبر الموضوع هي علاقةٌ "بينَ–ذاتيّة"، وبالتّالي لا يمكن الحديث عن الأنا دون استحضار الآخر والرّسالة المشتركة الّتي تجمعُهما، والمتمثّلة في "الموضوع"، فالأنا لا تتشكّلُ إلّا من خلال هذه العلاقات والتّفاعلات مع الآخر والموضوع.

هذه الرُّؤية لمفهوم "الأنا" في علم النّفس تختلف نوعاً ما عن المنظور الفلسفي الّذي تمّ توضيحُه سابقاً؛ حيثُ يربط "سيقموند فرويد" **الأنا بالعمليّات النّفسية الشُّعوريّة، كما يرى أنّ دور الأنا هو: "الإشراف على الحَركة الإراديّة، والقيام بحفظ الذّات؛ والقبض على زمام الرغبات الغريزيّة الّتي تنبع من "الهُو" (البُعد اللاّشُعوري في شخصيّة الفرد)**

وفقًا لفرويد، فإن الأنا تسمح بإشباع ما تشاء من هذه الرغبات، وتكبت ما يرى ضرورة كبته، مراعية في ذلك مبدأ الواقع..."[6]

وبذلك يكون تركيز "فرويد" على الأنا كوظيفة نفسيّة تنظيميّة تقوم بإدارة **الصّراع** بين الرّغبات الغريزيّة واللاّشعوريّة للفرد وبين متطلّبات الواقع الخارجيّ، وهذا يختلف عن التّركيز الفلسفيّ على الأنا كجوهر الشّخصيّة ومركز الوعي الذّاتي.

ووفقاً لـ "فرويد" فإنّ "الأنا الأعلى" هو ذلك الأثر الذي يبقى في النّفس من فترة الطُّفولة الطويلة، حيث كان الطفل معتمداً على والديه وخاضعاً لأوامرِهما ونواهيهِما، فيقوم الأنا بتقمُّص شخصية الوالدين والمربّين، بحيث تتحوّل السُّلطة الخارجيّة لهؤلاء إلى سلطةٍ نفسيّةٍ داخليّةٍ في نفس الطّفل؛ "**وبذلك تتحوّلُ سلطة هؤلاء الأشخاص الخارجيّة إلى سلطة نفسيّة داخليّة في نفس الطّفل..**"[7] وهذا الأثر له دورٌ كبيرٌ في تكوين شخصيّة الفرد، إذْ يتأثّر بما يرِثُه من عاداتٍ وتقاليدَ ومعارفَ وقيمٍ ومعتقداتٍ مكتسبة من الأسرة والمحيط.

وبذلك يؤكّد "فرويد" على الدّور الحاسم للأنا الأعلى في تشكيل الشّخصيّة والسُّلوك الإنسانيّ، بحيث يكون مصدره الأساسي البيئة الاجتماعيّة والأسريّة المبكّرة.

- الآخـــــــرُ:

يجبُ أنْ نتفهّم تعريفنا للآخر باختِلاف أشكاله وتنوُّع علاقته بالذّات (الأنا)؛ وهو مفهومٌ غنيٌّ ومتشعّب في الفكر والأدب العربيّ، وأهمُّ ما يمكن استخلاصُه هو أنّ:

الآخرُ هو المغاير للذّات (الأنا)؛ سواءٌ كان فرداً أو جماعةً أو أمّةً، قريباً أو بعيداً، محبوباً أو معادياً؛ "**بمعنى أحدُ الشّيئين، والآخرُ بمعنى غير كقولكَ رجلٌ آخرُ أو ثوبٌ آخرُ..**"[8]

أنّ للآخر علاقاتٌ متنوّعة بالذّات؛ فقد يكونُ خصماً ومتمرّداً عليها، أو جاذبًا لها ومبادلاً لها الحبّ، وأنّ العلاقة بين الذّات والآخر ليستْ ثابتةً، بلْ تختلفُ وُجهات النّظر إليها من طرف الشُّعراء والمفكّرين.

فالمعنى الاصطلاحي للآخر لا ينفصل عن المعنى اللُّغوي، فهو يعني أحد الشّيئين من جنس واحد أو الغير؛ كما جاء في المعجم الوسيط "**أنّ الآخرَ بمعنى أحدُ الشّيئين من جنسٍ واحدٍ..**"[9]

حيثُ أوضح بشكل جميل العلاقة الجدليّة والتّداخل بين مفهومي الأنا والآخر؛ فالآخر ليس بالضّرورة منفصلًا عن الأنا المتكلِّمة، بلْ غالباً ما يجتمعان في ذات واحدة، فالأنا والآخر هما وجهان لعملة واحدة، لا يمكن الحديث عن أحدهما دون الآخر؛ "**فالغيرُ سواءٌ أكانَ الخصمُ الّذي اصطدمَ مع الذّات، وتمرّد عليها أمْ كانَ جذبٌ نحوها، وبادلها حبّاً بحبّ، فإنّهُ في كلتا الحالتيْن لا يستطيعُ العيش بدون الآخر..**"[10]

لتتداخل الأدوار بينهما؛ فالآخر قد يصبح الأنا والأنا قد تصبح الآخر، وهذا يؤكّد على ثنائيَّتهما المتلازمة – فالأنا لا تُعرّف نفسها إلّا من خلال الآخر الّذي هو المرآة العاكسة لها.

هذا التّصوُّر الجدلي للعلاقة بين الأنا والآخر يعكس الحقيقة المعقّدة للذّات البشريّة وتشكُّلها في علاقتها مع الآخر.

- جدلية الأنا والآخر في قصيدة "أنا الكون" لجيلالي حلّام:

يصفُ النصّ الشّعري وصفاً دقيقاً باعتباره "عالماً مصوّراً" أو "مرآة عاكسةً" للتّجربة الشّعريّة الفريدة لكلّ شاعرٍ، حيثُ يقوم من خلال إبداعه الشّعريّ ببناء فضاءٍ خاصٍّ به، كما يقوم بتأثيثه بما احتفظتْ به ذاتُه في اللّاوعي، أيْ بإعادة إنتاج تلك النُّسَخ العابرة والانفعالات والصُّور المؤثّرة الّتي تخزّنها الذّاكرة البشريّة.

ويوظّف الشّاعر هذه المكوّنات لصياغة النّصّ وفقاً لحالاته النّفسيّة المختلفة، ممّا يساعده على الكشف عن كوامن ذاته وإبرازها أمام الذّات والآخر، وهذا ما نلاحظه في قصيدة "أنا الكون" للشّاعر جيلالي حلّام، لأنّها اعتمدتْ على ثنائية الأنا والآخر كوسيلة للتّعبير عن تجربته الشّعريّة الخاصّة؛ **"والمتمثّلة في تلكَ الانفعالات والصُّور المؤثّرة الّتي التقطتها العين والوجدان.."**؛[11] فهذا التّصوُّر للنّصّ الشّعريّ كعالم مُصوَّر ومرآة عاكسة يلقي الضَّوء على الطَّبيعة التّأمُّليّة والانعكاسيّة للتّجربة الإبداعيّة للشّاعر، والّتي تنطوي على جدلِ الذّات والآخر في بناء العالم الشِّعريّ.

أمّا العنوان الّذي شكّلتْ فيه الأنا ظاهرةً رئيسيّة في هذا النّصّ الشّعري، إذْ أنّ هناك عدّة نقاط مهمّة نستخلصُها من تحليلنا المتواضِعِ، أهمُّها استفتاحُ الشّاعر بـ"أنا" في العنوان جعل من ذات الشّاعر محور اهتمام القارئ، وربطُ الشّاعر بين "أنا" و"الكون" في العنوان له دلالة فلسفيّة عميقةٌ، فـ "الكونُ" يعبّر عن المعاني الكبرى للوجود والتّحوُّل والتّشكُّل، ربطُ "أنا" بـ"الكون" يشير إلى الرُّؤية الذّاتيّة للشّاعر وما تعانيه "أنا الشّاعر" من اضطرابات وتغيُّرات داخليّة.

يحتضنُ العنوانُ انفعالات الشّاعر وآلامِه وحسَراته ويستدعي التّفكير والتّدبُّر في كلماته، حيثُ **"يبدأُ النصّ بـ "أنا" بكلمة "الكون" لتتموقعَ موقع الخبر، وهنا يستوقفنا هذا التّركيب اللُّغوي للعنوان، وما يحملُه من دلالات تنبثقُ من منظورٍ ذاتيّ.."**[12]

ومن خلال هذا التّحليلِ الشّاملِ للدّلالات المتعدّدة الّتي يحملُها هذا العنوان الشّعري المَرْكَز، نجدُ أنّه تحليلٌ يكشف عن فهم دقيقٍ للبِنية اللُّغويّة والأبعاد الفلسفيّة والنّفسيّة الّتي يطرحها هذا العنوان، ومن خلال هذه الأبيات الشّعرية يتّضح أنّ الشّاعر يحاول التّعبير عن حالتِه النّفسيّة المضطربة والشُّعور بالضّياع والتّعاسة، لنستخلص من النصّ الشّعريّ أنَّ الشّاعر يصف نفسه باعتباره "الكون والأيّام"، ممّا يعكس شعوره بأنّه كائن شامل ومحوريّ في الوجود، وعندما يقول "إذا الشَّوك أدمى معصمي بِتُّ راضياً"؛ فهو يشير إلى معاناته وألمِه النّفسي الّذي يقبَلُه بصبرٍ وتسليمٍ، كما أنّ عبارة "أغمض الأجفان إلّا لأصبّحها" تعبّر عن حالة الحزن والألم الّتي لا يستطيع الهروب منها، بل يواجهها، ووصفُه لنفسِه بأنّه "حيران" و"تاهَ الموت عنّي" يدلُّ على شعوره بالضّياع والحيرة والقلق إزّاء مصيره، وطلبُه من الأعداء "رمحاً يمانيّاً" يوحي برغبته في مواجهة هذه المعاناة النّفسيّة بقوّة وصمود،

وبشكلٍ عامّ يعكس هذا النّصّ شعور الشّاعر بالاغتراب والتّشتُّت والتّعاسة، وحاجته إلى التّماسُك والتّوجيه في مواجهة ما يعانيه من أزمة نفسيّة؛ قائلاً:

أنا الكونُ والأيّامُ تنبيك ما بيا * إذا الشّوكُ أدمى معصمي بتُّ راضيا**
ومن كثرةِ الأرزاءِ أصبحتُ هافيا * فلا أُغمضُ الأجفان إلّا ثوانيا**
حيرانُ؛ تاه الموتُ عنّي ولم أزلْ * على هامةِ الأعداءِ رمحاً يمانيا**[13]

هذا التّحليل المعمّق للأبيات الشّعريّة، نلاحظُ من خلاله الطُّغيان الواضِح للذّاتيّة الفرديّة للشّاعر في هذه الافتتاحيّة، من خلال استخدامه المكثّف لضمير المتكلّم "أنا" وما يُشتقّ منه، هذا التّركيز على الأنا الشّاعرة يؤكّد على محاولتها إثبات وجودها وإبراز ذلك التّوهُّج الذّاتي داخل النّصّ.

ومع ذلك كما أشرنا بشكلٍ صائب، فإنّ الشّاعر لا يستطيع الاستغناء عن البحث المستمرّ عن ملامح الآخر المخزونة في ذاكرته، سواءٌ كان ذلك الآخر محبوباً أم عدوّاً، فنجدُه يخاطب هذا المنادى المجهول محاولاً من خلاله بناء جسر سرديّ حواريّ يكشِفُ عمّا يعتمل في داخله من مشاعرَ متضارِبة.

هذا التّحليل الدّقيق للنّصّ يؤكّد على الجدل المثير الدّائر بين الذّاتيّة الفرديّة للشّاعر ورغبته في التّواصُل مع الآخر والتّعبير عمّا يختلجُ في داخله، إنّه نصٌّ غنيٌّ بالتّوتُّرات والتّناقُضات النّفسيّة الّتي تعكسُ حالة الشّاعر الدّاخليّة بشكل مؤثّر؛ قائلاً:

فيا كوكب الجوزاء هلّا سألتني * لإنْ كُنتَ تبغي أنْ تصيبَ المراميا**

تجدْ محكمَ الآراء عندي وإنْ تسلْ * مداراً، أمين السّير فاركبْ مداريا**[14]

وتُشيرُ ملاحظتنا إلى أنّ الشّاعر قد استخدم أداة النّداء "الياء" كوسيلة لاستحضار الآخر وإبراز أهمّيّة حضوره ودوره في بناء النّصّ الشّعري، وهذا التّوظيف لأداة النّداء يُلمّح إلى محاولته لتجاوز الذّاتيّة المُفرطة والانفتاح على الآخر؛ **"فالفردُ يمكنُ أنْ يكونَ آخر حتّى بالنّسبةِ إلى نفسِه قبلَ مدّةٍ قصيرةٍ، كما يمكنُ أنْ يتحوّل إلى الآخر بعد مدّةٍ قصيرةٍ أيضا.."**[15]

وكما أشرنا نلاحظُ من خلال ذلك تغليبُ صوتِ الأنا على الأنا الشّاعرة، وذلك من خلال استخدام ضمير المخاطب بدلاً من ضمير المتكلّم، وهذا التّحوُّل في البُؤرة الخِطابيّة يُظهر رغبةَ الشّاعر في الحوار والتّواصُل مع ذلك المنادى المجهول، محاولاً الوصول إليه وتحقيق التّواصُل والتّفاعُل معه.

إنّ هذا التّوازن الدّقيق بين الأنا والآخر في النّصّ يُضفي عليه بُعداً جدليّاً وحواريّاً مؤثّراً، حيثُ تتجاذب الذّاتيّة الفرديّة للشّاعر والحاجة إلى الآخر وحضوره الفاعل، إذْ أنّ هذا التّحليل لآليات بناء الخطاب الشّعري في هذه الأبيات يُسهم في إثراء فهمِنا لهذا النّصّ الغنيّ بالتّوتُّرات النّفسيّة والمعرفيّة؛ قائلاً:

فقدْ عشتُ في دنيا الهوى غير أنّني * تنازلتُ شوطاً إذ طويتُ كتابيا**

أجلْ كان لي بالأمسِ سرٌّ أذعتُهُ * فملكتُ أقواماً زمانا حضاريا**

فكم نال طُلّابُ البيانِ فصاحةً * وكم نال رُوّادُ العلومِ تساميا**[16]

ولقد أشار الشّاعر بدقّة إلى تعدّد ضمائر المتكلّم في هذه الأبيات الشّعريّة؛ والّتي تُظهر انقسام الأنا الشّاعرة وتذبذبها بين مواساة وتعزية النّفس من جهةٍ، وإشراكُ القارئ والغير في الهمّ والغضب من جهةٍ أخرى.

كما لاحظنا بشكل واضح أنّ المقصود بـ"الآخر" في هذا السّياق هو القارئ العربيّ أو الجزائريّ، الّذي يسعى الشّاعر إلى إشراكه في معاناته ومشاعره المتأزّمة، وهذا يؤكّد أن استدعاء الآخر هنا هو إستراتيجيّة فنّيّة للتّعبير عن تلك الأنا الشّاعرة المضطربة والباحثة عن التّواصُل والتّفاعُل.

وإنّ هذا التّنوُّع في ضمائر المتكلّم وتعدُّد وُجُهات النّظر داخل النّصّ الواحد يُبرز تلك الجدليّة بين الذّات والآخر؛ والّتي تعكس حالة الانشطار والانقسام داخل الذّات الشّاعرة، وهو ما يتماشى تماماً مع ملاحظتنا بأنّ "الفرد يمكنُ أن يكون آخرُ حتى بالنّسبة إلى نفسه قبل مدة قصيرة، ويمكن أن يتحوّل إلى الآخر بعد مدّة قصير أيضاً.

إنّ هذا التّحليل المعمّق لآليات بناء الخطاب الشّعري في هذه الأبيات يُسهم بشكل كبير في إثراء فهمنا لهذا النّصّ المُتميّز بتعدّد الأصوات والتّوتُّرات النّفسيّة والوجوديّة.

ومن خلال هذه الأبيات نلاحظ أنّ الشّاعر جِلالي حلّام يطرح مسألة العلاقة بين العرب والآخر (الغرب)، وما يشوبُها من صراع وتناقض؛ فهو يشير إلى الفضل والمكانة المتميّزة الّتي كان للعرب والحضارة العربيّة الإسلاميّة في السّابق، حيثُ كانوا مصدر إنارة وتنوير للأمم الأخرى، والّتي استفادتْ كثيراً من علومهم ومعارفهم.

ومع ذلك يلاحظ الشّاعر أنّ الوضع قد تغيّر الآن؛ حيثُ أصبح الغربُ متفوّقاً على العرب في جميع المجالات، وهذا الواقع ولَّد لدى الشّاعر شعوراً مريراً وسلبيّاً نتيجةَ ما آل إليه الوضع في العالم العربيّ الإسلاميّ من انكسارات وتراجُع مؤسِفٍ، وبذلك يعكس الشّاعر من خلال هذه الأبيات الصّراع المستمرّ والعلاقة المتوتّرة بين الغرب والشّرق، وذلك من خلال تمثيلها في صراع الذّات (العربية الإسلامية) مع الآخر (الغرب)، وهذا الصّراعُ ناتجٌ عن تغيُّر موازين القوى والهيمنة بين الطَّرفيْن عبر الزّمن؛ قائلاً:

فيا مُبدع الأوزان عذرا إنّني * أسيرُ قيودٍ ثقّلها قدٌّ برانيا**
لِمَ أنظمُ الأشعار والشّعرُ كاسدٌ؟ * لِمنْ أنشدُ الأزجال شدواً ماتيا**
أ للبدر؟ والأقدامُ صارتْ تدوسُهُ * أ للزّهرِ؟ إذْ ما أصبحَ الزّهرُ ذاويا**
أ للقدسِ؟ والأغرابُ راحتْ تجوبُهُ * أ للعُربِ؟ والعرّابُ مازال قاضيا**
حرامٌ قريضُ الشّعرِ واللّيلُ مظلمٌ * يُؤرّقُ قلباً هدّهُ الوجدُ داميا**
إلامَ يظلُّ الغربُ للشرقِ سابقاً؟ * وأصلُ الحجا فينا وقد بات نائيا**[17]

فالأنا الشّاعرة تبدو محبطة ومستاءة من واقعٍ عنوانُه تفوُّق الغرب على العرب في مختلف المجالات، وهذا الإحباط دفعها إلى التّوجُّه نحو مخاطبة الأنا الجمعيّة للأمّة العربيّة، مستخدمةً أداة النّداء "يا" في محاولةٍ للفت انتباههم وإشعارهم بخطورة الموقف، كما لاحظنا أيضًا أنَّ الشَّاعر قد وظَّف أسلوب الاستفهام؛ والّذي لا يَنتظِر منه المتلقّي إجابة فعليّة، فالغرض هنا هو إقناعيٌّ وتنبيهيٌّ يهدف إلى إثارة المتلقّي وحثِّه على التّفكير والتّدبُّر فيما يسمع.

إنّ هذه الأساليب البلاغيّة الّتي وظَّفها الشّاعر كأداةِ النّداء والاستفهام، تعكسُ محاولتَه إيصالَ رسالةٍ محدّدةٍ إلى الأنا العربيّة؛ وهي رسالة تحذير وتنبيه من خطورة الوضع الرّاهن، والحاجة إلى إعادة النّظر فيما آل إليه حال الأمّة العربيّة مقارنةً بتفوق الغرب؛ قائلاً:

كفانا ظلام اللّيل للفجرِ موعدٌ * رويداً فهذا الصّبحُ قد لاحَ آتيا**
فيا أمّةً قد طال في الغيّ لهوُها * أفيقي فصوتُ الحقّ صاح مناديا**
ألم يعرف الأحرارُ من حالفَ العِدا؟ * وأهدى سُيوفَ الجدّ للخصمِ راضيا**
تخلّى عن الأصلِ العريق وليتَهُ * تعلّمَ أنّ الشّعبَ مازالَ باقيا**[18]

من خلال التّدقيق في الصُّورة الشّعريّة الّتي رسمها الشّاعر في نصّه؛ نجدُه يستخدمُ أناهُ الشّاعرة الحريصة فعلًا على إحضار الآخر والتّفاعل معه، والّتي تنتقلُ بين ضمائر المتكلّم (الأنا/نحن) وضمائر الغائب (هو) للتّعبير عن هذا التّفاعل.

كما أنّنا لاحظنا بشكل لافتٍ استخدامه لعنصر الزّمن المتراوح بين الماضي والحاضر؛ ممّا يعكس رغبة الشّاعر الملحّة في التّغيير والتّطوُّر، إذْ يُحاول إيقاظ الأمّة العربيّة من سُباتها وحثّها على اللّحاق بالرّكب المتقدّم.

هذه الرّغبة في التّغيير ليستْ خاصّة بالشّاعر وحده، بلْ هي رغبةٌ مشتركةٌ بينها وبين كلّ فرد من أفراد الشّعوب العربيّة التّي تعيش على أملِ غدٍ أفضل وأجمل، فالشّاعرُ يتطلّع إلى يوم تعود فيه شمسُ العرب لتسطع من جديد، بعد فترةٍ من الغَلَبة والتّفوّق الغربيّ.

كما اعتمد الشّاعرُ على البنية الشّعرية والدّلالية في نصّه؛ ممّا يعكسُ فهمهُ العميق للتّقنيّات الأدبية الّتي استخدمَها لإبراز رؤيته وانفعالاته؛ قائلاً:

سنُعلي لواء الحقّ مهما تطاولتْ * بُغاثُ الونى يوماً يرومُ الأمانيا**

إلى مُرهفِ الأسماعِ أشدو ملاحما * لتبقى صلاةٌ تُرفعُ الهامَ عاليا**[19]

وهنا يستحضر الشّاعرُ صوتَ المتنبّي الشّاعر العربيّ المعروف من خلال آلية التّناصّ؛ فالأنا المتكلّمة في النّصّ تبدو متأثّرةً بشكلٍ كبير بشعر المتنبّي وشخصيته المعتزّة بذاتها؛ في قوله:

على مذبح الأحرار أرجو نهايتي * فلا خيرَ في الإنسان إنْ مات طاويا**

جعلنا فُتاتَ الخبزِ عيشاً وفاتنا * ركوبُ المعالي نحسبُ الزّادَ فانيا**[20]

هذا التّناصُّ مع المتنبّي يعكس رغبة الشّاعر في التّغنّي والتّعالي بأناً عربيّةٍ قويّةٍ وواثقةٍ من ثقافتها وتراثها القديم، فهي تستحضر هذا الصّوت الشّعريّ المهيب لتُؤكّد على هذا الإحساس بالعزّة والفخر بالذّات العربيّة.

وكما أشرنا؛ فإنّ هذا الاستحضار للمتنبّي يظهر في قول الشّاعر المذكور آنفا، والّذي يُجسّد هذا الإحساس بالاعتزاز بالأنا العربيّة المتشبّعة بالثّقافة والتُّراث، فالشّاعر يريد أن يستلهم من شخصيّة المتنبّي وشعره هذا الإحساس بالعزّة والاعتزاز بالذّات.

إن هذا التّناصّ مع المتنبّي في النّصّ كان دقيقاً وموفّقاً إلى حدّما، باعتبار هذه التّقنيّة الأدبيّة تُسهم بشكل كبير في إبراز الرُّؤية الشّعريّة للأنا المتكلّمة وتأكيد هويّتها العربيّة المعتزّة بتراثها، إذْ نلاحظُ كيف استخدمَ الشّاعر مجموعة من الرُّموز السّاخرة والمنتقدة لإبراز موقف الأنا الشّاعرة من الواقع السّياسي والثّقافي للعالم العربيّ في تلك الفترة.

فمن خلال استحضار مفاهيم "كارل ماركس" و"آدم سميث"، يشير الشّاعر إلى انحراف حكّام العرب عن مبادئ العدالة الاجتماعيّة والحرّية الاقتصاديّة، وخضوعهم لأفكار وسياسات غربيّة بعيدة عن الهويّة والقيم العربيّة الأصيلة، كما أن استخدام مصطلحات "يمينيّا" و "يساريّا" يعكسُ تبنّي هؤلاء الحكام لمذاهب سياسيّة واقتصاديّة غربيّة على حساب الانتماء القومي والدّيني للشُّعوب العربيّة.

وفي النهاية؛ تؤكّد كلمة "الضّاد" على ضرورة العودة إلى الأصول العربيّة الأصيلة؛ ممثلةً في القرآن الكريم والسنّة النّبويّة الشّريفة، كبديلٍ لهذا الانحراف والتّبعيّة للغرب.

إنّ هذا التّوظيف الرّمزيّ السّاخر يعكس موقف الأنا الشّاعرة المتمرّدة على واقع الخنوع والتّبعيّة العربيّة للغرب، والدّاعي إلى استعادة الهويّة والقيم الأصيلة، وهو ما أوضحناه بشكلٍ دقيق في تحليلنا؛ حيثُ يبرزُ الشّاعرُ ذلكَ قائلاً:

وسرنا نقيمُ الحكم وفق مذاهب * الكلِّ ودعْهُ نشربُ الكأسَ فاضيا**

عجِبتُ لحكّامٍ يسوسونَ أمّـــةً * فحـــينا يمـــيناً وحـــيناً يســـاريا**

إذا العُربُ لمْ يأخذْ من الضّادِ علمهُ * فما ازدادَ في التّجهيلِ إلّا تماديا**[21]

– الخاتمة:

لقد لاحظنا بشكلٍ واضح أنّ الشُّعراء الجزائريّين المعاصرين قد احتفوا بتجربة الآخر في شعرهم؛ سواءٌ كان هذا الآخر مُمَثّلا في العدوّ الاستعماري البعيد أو في المجتمع القريب، ومن هؤلاء الشُّعراء الجزائريّين الّذين برز هذا الاحتفاء عندهم "الشّاعر جيلالي حلام" في قصيدته "أنا الكونُ"؛ ففي هذه القصيدة رأينا أنّ الشّاعر جيلالي حلّام قد تنقّل بين مخاطبة العدوّ البعيد والمستعمر الغاشم؛ معبّرا عن مشاعر الكراهية والاستنكار لأعماله الشّنيعة، وفي الوقت نفسه نجدُه يوجّه خطابه لأبناء أمّته العربيّة، مبرزاً تلك المشاعر المتأجّجة من حبّ وشفقة على الشُّعوب المغلوبة على أمرها، والغضب والسّخط على حُكّامها الرّاضخين لسُلطة الغرب.

حيثُ يشير هذا التّحوُّل في خطاب الشّاعر إلى أنّ تجربة الآخر، سواءٌ البعيد أو القريب، قد احتلّت مساحة بارزة في تجربته الشّعريّة، مُشكّلةً محورا مهمّا في انشغاله الفكريّ والشُّعوريّ، فالشّاعر استشعر ضرورة وجود الآخر بقربه، ووجد في مخاطبته وسيلةً للتّعبير عن همومه وقضاياهُ الوطنيّة والقوميّة.

هذه التّجربة الشّعريّة الّتي ظهر فيها بوضوح أنّ الأنا الشّاعرة لا يمكنها الاستغناء عن الآخر بمختلف أشكاله، كما تجلّى هذا الآخر في أشكال متعدّدة نذكرُ منها:

– **الأنا المتشظّية على ذاتها:** وهذا ما يعكس حالة التّيه والضّياع والتّعاسة الّتي قد تنتاب الذّات الشّاعرة.

– **الآخرُ القريبُ كالأمّة العربيّة:** حيثُ نجد الشّاعر يوجّه خطابه لأبناء أمّته، معبّرا عن مشاعر الحبّ والشّفقة.

– **الآخر البعيد كالغرب:** وهنا يستنكرُ الشّاعر أعمالَ المستعمر الغاشم ويعبّر عن كراهيته وحقده تجاهه.

هذا التّنقُّل بين مختلف أشكال الآخر يُؤكّد أنّ الذّات الشّاعرة لا يمكنها البتّة الاستغناء عنه، بل إنّه يُشكّل محوراً مركزيّا في تجربة الشّاعر الفكريّة والشُّعوريّة؛ فالآخر بكلّ أنواعه هو الّذي يعكس للأنا الشّاعرة رؤيتها لذاتها ولعلاقتها بالعالم من حولها، فقصيدة "أنا الكون" للشّاعر جيلالي حلام تتّسم بغلبة النّزعة التّأمُّليّة التّفاؤليّة، حيثُ يسعى الشّاعر من خلالها إلى شحذ الهمم وتحفيز الآخر على النُّهوض والتّطلُّع نحو الأعلى.

ومن خلال هذه القصيدة نجدُ الشّاعر يتوجّه بخطاب مشحون بالأمل والإيمان بقدرة الإنسان العربيّ على تحقيق التّقدُّم والرقيّ، كما يستنكر حالة التّهاون والتّكاسل والتّراجع الّتي تنتاب الأمّة العربيّة، داعيا إيّاها إلى نفض غبار الخمول والكسل والاستسلام، والسعي بجدٍّ ونشاطٍ نحو بلوغ القمم؛ حيثُ تتجلّى هذه النّزعة التّفاؤليّة في تأكيد الشّاعر على أنّ الإنسان العربيّ لديه كامل القدرة على استعادة مجده وعظمته التّاريخيّة، طالما أنّه يتخلّص من أوهام الضّعف والهزيمة ويؤمن بإمكانيات نهوضه وتطوُّره، فالأنا الشّاعرة هنا تسعى إلى إشعال شرارة الأمل والإصرار في نفوس أبناء الأمة العربيّة.

إذن يمكن القول أنّ هذه القصيدة تنطوي على رسالة تحفيزيّة وتفاؤليّة، تدعو الآخر إلى التّخلّي عن الاتّكاليّة والاستسلام، والتّحرُّك بنشاط نحو مستقبل أفضل يليق بالعرب وكرامتهم.

كما لاحظنا كيف استطاع الشّاعر جيلالي حلّام تجسيد **الصّراع القائم بين الحضارتين الغربيّة والشّرقية** من خلال قصيدته "أنا الكون"، فهذه القصيدة تعكس الصّراع الدّاخلي الّذي يعيشه الشّاعر بوصفه فردا ينتمي إلى الحضارة العربيّة الإسلاميّة، ولكنّه في الوقت نفسه متأثّر بالثّقافة والفكر الغربيّ؛ ومن خلال هذا الصّراع الدّاخلي تمكّن الشّاعر من إنشاء فضاء نصّيّ ممتصّ لتجربته الشّعريّة المعقّدة، فنجده يرفض الانصياع الكامل للغرب وثقافته، ويدعو إلى النُّهوض والتّطوُّر الذّاتي للحضارة العربيّة الإسلاميّة، وفي الوقت ذاته لا ينكر التّأثير الّذي مارسه الغرب عليه، وحاجة العرب إلى الانفتاح على الثّقافات الأخرى واستيعاب إنجازاتها.

هذا التّوازن الّذي حاول الشّاعر إيجاده بين الحضارتين انعكس على مستوى البناء الفنّي للقصيدة؛ حيث تداخلت فيها العناصر الشّرقيّة والغربيّة لتشكّل نسيجاً شعريّاً متكاملاً، فجاءت القصيدة متّسمة بالتّركيب والتّعقيد، ممّا يعكس الصّراع الدّاخلي للشّاعر وتجربته الشُّعوريّة المعقّدة، لنستطيع القول أخيراً أنّ قصيدة "**أنا الكون**" للشّاعر جيلالي حلّام تجسّد بشكل عميق الصّراع الحضاريّ القائم بين الشَّرق والغرب في الشِّعر الجزائريّ المعاصر، من خلال تجسيدِ هذا الصّراع على مستوى تجربة الشّاعر الذّاتية وبنية النّص الشّعريّ.

- الهوامشُ:

* جيلالي بومعزة حلّام؛ (1949/ 2006) بسيدي بلعبّاس، الجزائر، شارك في عديد النّدوات والملتقيات على السّاحة الأدبيّة والثّقافية، حيثُ نالَ الجائزة الأولى للشّعر من جامعة وهران عام 1968، له مؤلّفاتٌ عدّة منها: مباحثُ في علم الأصوات، تسابيح فجر العرب (ديوان شعري) الّذي نُشر سنة 2003، قراءة في المصطلح الصّوتي، المعجميّة العربيّة، تقنياتُ التّعريف في المعاجم العربيّة المعاصرة...

- المراجع:

[1] جمال الدّين بن مكرم بن علي أبو الفضل، ابن منظور، لسانُ العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 2000، ص38.

[2] إبراهيم مصطفى، المعجم الوسيط، المكتبة الإسلاميّة للطّباعة والنّشر، تركيا، ص28.

[3] بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان، لبنان، د ط، 1987، ص18.

[4] عبّاس يوسف الحدّاد، الأنا في الشّعر الصّوفي، ابن الفارض أنموذجاً، دار الحوار للنشر والتّوزيع، اللّاذقيّة، سوريا، ط2، 2009، ص189.

[5] المرجع نفسُه، ص189.

[6] عبّاس يوسف الحدّاد، الأنا في الشّعر الصّوفي، ابن الفارض أنموذجاً، ص190.

[7] سيغموند فرويد، الأنا والهو، تر: حمد عثمان نجاتي، دار الشّروق، بيروت، لبنان، ط4، 1982، ص16.

[8] المرجع نفسه، ص17.

[9] ابن منظور، لسانُ العربِ، دار صادر، بيروت، لبنان، ط3، 1994، ص25.

[10] مُعجم الوسيط، مَجْمع اللُّغة العربية، القاهرة، مصر، ط4، 2004، ص8.

[11] فاضل أحمد العقود، جدليّةُ الذّات والآخر في الشّعر الأمويّ- دراسةٌ نصّيةٌ، دار غيداء للنّشروالتّوزيع، ط1، 2012، ص34.

[12] إلزا غودار، أنا أوسيلفي إذن أنا موجود –تحوُّلات الأنا في العَصر الإفتراضي- تر: سعِيد بن كرَّاد،المركزُ الثّقافي للكتاب، الدّار البيضاء، المغرب، 2019، ص11.

[13] علي قاسم الزُّبيدي، درامية النّصّ الشّعري الحديث- دراسة في شعر صلاح عبد الصّبور وعبد الفتّاح المقالح، دار الزَّمان، ط1، ص42.

[14] صالح علي الشّيتوي، الأنا والآخر في شعر أبي العلاء المعرّي -ديوان سقطُ الزّنَد أنموذجا- المجلة الأردنيّة في الّلغة العربيّة وآدابها –مجلة علميّة عالمية مُحكّمة- جامعة مُؤتة،الكرك، الأردن/ مج1، الع1، 2005، ص44.

[15] جيلالي حلّام، ديوان تسابيحُ فجر العرب، ص23.

[16] المرجع نفسُه، ص23.

[17] قاسم سيزا، القارئ والنّصّ، المجلسُ الأعلى للثّقافة، القاهرة، ص81.

[18] جيلالي حلَّام، ديوان تسابيح فجر العرب، ص23- 8124

[19] المرجع نفسُه، ص20.

[20] المرجع نفسُه، ص25.

[21] المرجع نفسُه، ص25-26.